وكان صنيع هذا القاضي في إكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله وأجل، وبعث ولده عوضاً عنه لدخول الحمّام معنا.

وبهذه المدينة تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا وكان كبير القدر. وبأرض الروم طائفة ينتمون إليه ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الأحمدية بالعراق، والحيدرية بخراسان. وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر.»

ولا أنس مسيري في قونية ليلة الوداع وانتحائي منتدى قرب المحطة وجلوسي تحت أشجار هناك إلى نافورة كأن وسوستها في صمت المكان مناجاة أو حديث النفس

وبيننا يجول الفكر في مشاهد قونية وتاريخها، ويطير بيني وبين الوطن والأهل في لمحات، انبعث المذياع مبلغاً رسالة مصر كأنها جواب النجوى. ولست أدري أعرف صاحب المنتدى أني مصري فآنسني، أو كان اتفاقاً أجاب حديث الضمير. وكثيراً ما سمعت في استنبول وقونية صوت مصر، لا سيما حين تلاوة القرآن

عبد الوهاب عزام

ضوء تاريخنا النبوي

عائشة والسياسة(*)

للأستاذ سعيد الأفغاني

لم يتح للسيدة عائشة أن يكون لها أدنى أثر في السياسة على عهد الخليفتين العظيمين أبي بكر وعمر؛ بل كان شأنها شأن بقية أمهات المؤمنين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم: يُستفتَين في المسائل من أمور الدين، وخاصة فيما لا يعانيه إلا النساء. فبقين بعد وفاة الرسول مثابة لرواد الفقه وحملة الشريعة، وهذا من حكمة الله ورحمته بهذه الأمة، إذ جعل من أزواج صاحب الرسالة من تعيد سيرته المطهرة خمسين سنة تنشر تفاصيلها للناس، كأن الوحي لم ينقطع، وكأنهم من أنواره في شمس لا يلم بها أفول ولا تحجبها

(*) الأغاني ٥ — ١٣٠ (طبع دار الكتب)

ظلمة. وليس كل السنة يتسنى للرجال معرفتها، ولولا ما نشرن منها لضاع علم كثير: فكان أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من كبار الصحابة، كثيراً ما يسألونهن في دقاق المسائل وجلائلها، وعلى هذا اقتصر عمل عائشة لهذا العهد. وكان في ذكائها (رحمها الله) وفي علمها ما جعلها مقدمة على عامة أزواج النبي (ص): يعرفن ذلك من حقها، ويرجعن أمورهن إليها... وكان الناس حين يفزعون إلى أزواج النبي لا يسدؤون إلا بها... فمكانها فيهن مكان الزعيم...

* * *

فلما كان عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، سارت السيدة في الشطر الأول من خلافته (سيرتها على زمن صاحبيه): تفتي وتحدث وتنشر العلم... لكنه لم يكد لين عثمان يجري الناس عليه، ولم تكد القالة تفشو ناقمة على بعض تصرفاته، حتى انقلب الأمر، ورأينا السيدة عائشة تقود حركة المعارضة، ورأينا عثمان يتبرم بموقفها كل التبرم ولم تزل السيدة توغل في تدخلها السياسي حتى أدى إلى ما لم تكن تحب، وحتى خرج الأمر من يدها في النهاية إلى يد الغوغاء، فكانت أشد الناس ندماً على ما قدّمت...

كان مما أخذ الناس على عثمان عزله من ولاية الكوفة القائد المغوار صاحب رسول الله سعد بن أبي وقاص، وتوليته الوليد ابن عقبة أخاه من الرضاعة. فلما حضر وفد أهل الكوفة متذمرين إلى عثمان من عاملهم الجديد انتهرهم وأوعدهم... فلجؤوا إلى أم المؤمنين عائشة الصديقة مستجيرين. وأصبح عثمان، فصلى بالناس الفجر في مسجد رسول الله (ص)، فسمع من حجرة عائشة صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة. فقال: «أما يجد مُرّاق أهل العراق وفساقهم ملجأً إلا بيت عائشة؟!». فسمعت عائشة فغضبت. ورفعت نعل رسول الله صلى عليه وسلم وقالت: «تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل». فتسامع الناس فجاؤوا حتى ملؤوا المسجد. فمن قائل: «أحسنت»؛ ومن قائل: «ما للنساء ولهذا» حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال. ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان فقالوا له: «اتق الله ولا تعطل الحد، واعزل أخاك عنهم». فعزله عنهم! وهكذا استطاعت السيدة بما لها من

المكانة والذكاء أن تهيئ لمعارضتها نجاحاً باهراً . ففيرت هـذا العامل على رغم الخليفة. وخير ما نطلقه عليها أنها كانت: «زعيمة المعارضة» — على اصطلاح هـذا العصر — مدة الخليفتين عثمان وعلى . . .

ثم جاءت شكوى المصريين من عاملهم ابن أبي سرح على نحو شكوى أهل الكوفة من عاملهم . وقامت السيدة فى ذلك مقاماً حميداً كما قام غيرها من مشيخة الصحابة مثل على وغيره . إلا أن ابن أبي سرح لم يعمل بكتاب عثمان[1]، وقتل أحد الذين كانوا شكوه ؛ فرجع المصريون إلى المدينة ، وشكوا إلى أصحاب النبي وأزواجه ما صنع ابن أبي سرح . فقام طلحة ؛ فكلم عثمان بكلام شديد . وأرسلت إليه عائشة : « قد تقدمت إليك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوك عزل هذا الرجل ؛ فأبيت أن تعزله ؛ فهذا قد قتل رجلاً منهم فأنصفهم من عاملك . . . »

ولما رجع المصريون بكتاب عثمان المزور ، وضج الناس ، كانت عائشة تذمه كثيراً ، وكانت هى نفسها تقول (فيما بعد) : « إنا نقمنا عليه ضربه بالسوط ، وموقع السحابة ، وإمرة سعيد والوليد . فقضبنا لكم من سوط عثمان . . . »

ومواقف عائشة هذه من عمال عثمان وإرغامها إياه على تغييرهم، قد آذته كثيراً حتى خرج مرة عن وقاره واعتداله ، وما يليق به من الاحتمال والحلم . قال صاحب (البدء والتاريخ) :

« كان أشد الناس على عثمان طلحة والزبير ومحمد بن أبي بكر وعائشة . وخذله المهاجرون والأنصار ، وتكلمت عائشة فى أمره وأطلعت شعرة من شعرات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونعله وثيابه وقالت : « ما أسرع ما نسيتم سنة نبيكم ! » فقال عثمان فى آل أبي قحافة أشرة عائشة ما قال ، وغضب حتى ما كان يدرى ما يقول »[2] .

هذا ما كان من آثارها ، ودع لنفسك أن تقدر ما يبلغ مثل ذلك من نفوس الناس ، وهم حينئذ أولو الحمية للاسلام ، وأقرب الناس عهداً بالرسول وصاحبيه — كم يبلغ من نفوسهم الوجد على عثمان حين فرّط حتى بلغ السيل الزبى ، وحتى تغير عليه امرأة — ثم لا تكون تلك المرأة إلا أم المؤمنين عائشة : ترفع عليه فى المسجد صوتها وتبرز للمسلمين نعل الرسول مرة ، وشعره مرة ، وثوبه مرة ، تنصبه فى حجرتها وتقول للداخلين عليها : « هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَبلَ ، وقد أبلى عثمان سنته » . وكان عثمان مرة يخطب فدلّت عائشة قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالت : « يا معشر المسلمين ! هذا جلباب رسول الله لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته » . فقال عثمان : « رب اصرف عنى كيدهن ، إن كيدهن عظيم ! »[1] .

إن الأثر الذى أثرته فى قلوب الناس لجد بليغ . ولست أغلو إن قلت : إن هـذا التغير فى النفوس يكمن ؛ ثم هو لا يزداد على الأيام إلا شدة . وهذا يفسر لنا بجلاء سبب تقاعس أهل المدينة عن نصرة عثمان حين حزبه الأمر واغتاله أهل الأمصار .

وزعم بعض الرواة أنها أول من سمته (نعثلاً) و (نعثل) اسم يهودى أو نصرانى طويل اللحية، لقب به عثمان تشبيهاً له به. وأنها كانت تقول : « إقتلوا نعثلاً . قتل الله نعثلاً » . وكان الناس يسبون عثمان حول فسطاط عائشة بمكة ، وعثمان بمر ، ولم تر السيدة له ولم تغير شيئاً .

ولقد تضافرت روايات من طرق مختلفة على سعى عائشة على عثمان . ولما آلت الخلافة إلى على ونهضت هى تطالب بدمه . قال لها عمار : «أنت بالأمس تحرضين عليه واليوم تبكين عليه !» وقال لها ابن أم كلاب : « والله إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلاً فقد كفر » .

وإذا علمت أن أشد الناس على عثمان — وهو طلحة — يرجو أن تكون إليه الخلافة بعده ، وأن طلحة ابن عم أبي بكر (رحمه الله) ، وأمعنت فى الحوادث التى حفت بهذا العهد، وجالت بنفسك الخواطر، وجدت فى رواية الطبرى الآتية (وهى مصنوعة باتقان) حل المسألة فاسترحت إليه :

« خرج ابن عباس إلى موسم الحج بكتاب عثمان ، فمر بعائشة فى (الصُلصُل) فقالت : (يابن عباس أنشدك الله فقد أعطيت

(١) الحادثة مشهورة ، وقد تركنا من التفاصيل كل ما ليس له علاقة صميمة بموضوعنا . فليرجع القارئ إلى كتب التاريخ فى كل ما يعرجه من إشارات فى هذا المقال .

(٢) ٥ : ٢٠٥

(١) اليعقوبى ٢ : ٢٠٣

لساناً إزبلاً (نشيطاً) أن تخذّل عن هذا الرجل وأن تشكك فيه الناس ، فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لأمر قد حُمّ . وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن المفاتيح ، فإن يل يسرْ بسيرة ابن عمه أبي بكر) . فقال ابن عباس : (يا أمه ، لو حدث بالرجل (يعني عثمان) حدث ، ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا (يعني علياً) . فقالت عائشة وقد يئست منه : (إنها عنك ، لست أريد مكابرتك ومجادلتك) » . اهـ

وعلى هذا تكون السيدة لم تكتف بزعزعة مركز عثمان ، بل تطمح إلى فرض رأيها في تنصيب الخلفاء أيضاً

وزعم ابن أبي الحديد أن عائشة لما بلغها قتل عثمان قالت : « بعداً لنعثل وسحقاً ! أبعده الله ، ذلك بما قدمت يداه » وكانت تطمع أن يكون الأمر إلى طلحة وتقول : « إيه ذا الإصبع (تعني طلحة لأن إصبعه شلاء) إيه أبا شبل ، إيه يا ابن عم ! لكأني أنظر إلى إصبعه وهو يبايع ، حثوا الإبل ، لله أبوك ، أما إنهم وجدوا طلحة كفواً ...) ولما بلغها بيعة علي قالت : « نعسوا ، نعسوا ، لا يردون الأمر في تيم (قومها وقوم طلحة) أبداً ... » ثم أمرت برد ركابها إلى مكة وتقول : « قتلوا ابن عفان مظلوماً » فقال لها قيس بن أبي خازم : « يا أم المؤمنين ألم أسمعك آنفاً تقولين : أبعده الله ؟ وقد رأيتك قبلُ أشد الناس عليه وأقبحهم رأياً فيه ! » فقالت : « لقد كان ذلك ، ولكني نظرت في أمره وأمرهم فرأيتهم استتابوه ، حتى إذا تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائماً في شهر حرام فقتلوه[1] » اهـ

وهي رواية أسخف من التي تسربت إلى الطبري رحمه الله . وهذا موضوع لفق له بعض الناس من الأخبار ما يرضي أهواءهم على ما نرى اليوم من عمل الأحزاب السياسية . بل إن بعضهم كان يتعبّد بوضع الروايات التي تنصر صاحبه وتدين خصمه . وما نسب إلى السيدة — في رواية ابن أبي الحديد خاصة — لا يصدر عن الأطفال ، بله من كان في مثل عقل السيدة ودينها وحصافتها

سعيد الأفغاني

(١) شرح نهج البلاغة ٢ : ٧٦